بين الفصحى والعامية

بقلم محمد داود
أستاذ بكلية أصول الدين (تطوان)

اللسان العربي ، ونعني به اللغة العربية ، ينقسم الى قسمين : فصحى وعامية ، وهذه هي التي يسميها بعضهم بالدارجة .

واذا اردنا زيادة التدقيق نقول ، ان اللغة العربية التي يتكلم بها العرب والمستعربون في عصرنا هذا ، تنقسم الى ثلاثة أقسام :

الاول : العربية الفصحى .
الثاني : العربية العامية المثقفة .
الثالث : العربية العامية الدارجة .

فالقسم الاول – **العربية الفصحى – هي التي يحافظ فيها على القواعد المتحدة في علوم النحو والصرف والبلاغة ، وهي لغة القرآن الكريم ، واللغة التي كان قدماء العرب يتخاطبون بها ويلقون بها خطبهم العادية ، وينظمون بها أشعارهم المحفوظة المروية ، وهي التي كتب بها العرب والمسلمون مؤلفاتهم في مختلف العلوم والفنون في مئات السنين** ، وهي التي يلقى بها خطباء مساجدنا خطبهم الدينية في زوال كل يوم جمعة ولا يكاد يوجد حتى من بين عوامنا من لا يفهمها كلا او بعضا.

وبهذه اللغة تكتب الوثائق الشرعية ، والرسائل الرسمية والعادية ، وان كان بعض الناس يلحنون فيها قليلا او كثيرا ، وهذه العربية الفصحى لم يبق لها الآن استعمال في الاوساط الشعبية والكلام العادي حتى في قلب جزيرة العرب ، استغناء عنها باللغة العامية بقسميها المثقف والدارج .

والقسم الثاني : **العامية المثقفة – هي التي تتكلم بها الطبقات المثقفة والاشخاص الذين درسوا من العلوم قليلا او كثيرا ، ويطالعون الكتب ويقرأون الصحف العربية ، وهذه اللغة يمكننا ان نسميها ، عامية** المثقفين او فصحى العوام ، لانها تحتوي على كثير من العبارات الفصيحة مع قليل من التحوير او التغيير ، وهي التي كنا نتفاهم بها مع مثقفي البلاد العربية من الذين اجتمعنا بهم في مختلف الاقطار ، على ما بينهم من بعد في الديار ، واختلاف في الالوان والامصار .

والقسم الثالث : هو عامية الاميين ومن في حكمهم من الذين لا يقرأون ولا يطالعون الكتب والصحف ، وهم سواد الامة العربية وخصوصا في البوادي والقبائل **التي لم يعم فيها التعليم** ، وهي لغة وان كانت عريقة في العامية . الا أن أصولها أو على الاقل جل أصولها ، لا يخرج عن الاصول العربية أو المعربة الا نادرا جدا . وتطوان ونواحيها وأعني بنواحيها (I) قبائلها الجبلية ، لغتها الوحيدة هي العربية أصولا وفروعا ، ولكنها بلهجة

(I) الاستاذ محمد داود قد اتحف الخزانة العربية بدراسة قيمة عن تاريخ تطوان في خمسة عشر مجلدا صدر بعضها حافلا بالمعلومات الطريفة والوثائق الشيقة. (اللسان العربي)

خاصة لا تخرج عن كونها احدى اللهجات العربية ، وشأنها في ذلك ، شأن باقي اللهجات الموجودة في أنحاء العالم العربي .

واللغة العامية ؟ وخصوصا الدارج منها ، فيها لهجات كثيرة تختلف باختلاف الاقطار ، بل تجد في القطر العربي الواحد عدة لهجات قد تعد بالعشرات ، تلك هي وضعية اللغة العربية الآن في العالم العربي الذي قمت شخصيا بزيارة جل أقطاره ، وتحدثت مع كثير من علمائه وأدبائه ، واتصلت بعامته ومختلف طبقاته .

نعم لقد مرت ظروف قام فيها بعض الشواذ في بعض الاقطار الشرقية ، متأثرين بأوساطهم المحدودة ، بالدعوة الى الغاء العربية الفصحى واحلال العامية محلها، ولكنها دعوة باءت بالفشل ، لانها من الجهل والغباوة بمكان . فالفصحى لها مكانتها ومواطنها ، والعاميات المختلفة لها مواطنها وأوساطها . ولا تحل احدى اللغتين محل الاخرى بحال .

ونحن لا نتأخر لحظة عن رفع أصواتنا ، مؤكدين أنه مهما كانت الظروف والاحوال فان العربية الفصحى هي اللغة التي لها قواعد محفوظة محدودة يعرفها الناس ويقفون عندها في مشارق الارض ومغاربها ، وهي اللغة التي يتحدث بها أهل العلم والادب في مجالسهم العلمية والادبية ، وبها يؤلفون كتبهم وابحاثهم في مختلف العلوم والفنون ، وبها ينشرون الصحف السيارة فتنتشر في بقاع الارض ويقرأها الملايين من الناس في جميع القارات ومختلف الاوساط ، ولا يمكن لاية لهجة من اللهجات العامية ان تقوم مقامها ولو كانت في نظر أصحابها من الحلاوة والخفة بمكان .

ونحن من انصار العربية الفصحى والداعين لتعميمها ونشرها بكل ما يمكن من الوسائل لانها هي العروة الوثقى التي تربطنا بعشرات الملايين من اخواننا العرب الابرار ، في مختلف البلاد والاقطار ، كما تربطنا العقيدة الاسلامية الطاهرة ، بمئات الملايين من اخواننا المسلمين في مشارق الارض ومغاربها .

نحب اللسان العربي المبين ونعتز به ، لانه هو الذي حفظ لنا ـ وما زال يحفظ لنا ـ كتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وأصول شريعتنا ، وأحكام ديننا ، وقواعد علومنا ، وأسس ثقافتنا ، وثمرات أفكار آبائنا وأجدادنا، ونتائج بحوث علمائنا وأدبائنا في ميادين المعارف والعلوم ، ورياض الآداب والفنون .

ولكننا مع هذا وذاك ، لا يمكننا ان نتجاهل الواقع، أو أن ننكر أن اللهجات العامية هي وحدها السائدة الآن في جميع الاوساط الشعبية بالعالم العربي شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ، وأن لهذه العربية لهجات لايكاد عددها يحصر .

وقد تجولت في جل انحاء العالم العربي ، فزرت بنفسي من بلادنا المغربية جل مدنها وكثيرا من قبائلها، وزرت من بقية البلاد العربية أقطار الجزائر ، وتونس، وليبيا ، ومصر ، والحجاز ، ونجد ، والعراق ، وسوريا ولبنان والاردن وفلسطين ، وتحدثت في تلك الاقطار مع مختلف الطبقات ، وأنصت الى مختلف اللهجات ، فوجدت ان الاصل في الغالب واحد ، الا أن الاساليب تقترب من بعضها تارة وتبتعد تارة اخرى . ولكنها على تقاربها وتباعدها ، فيها من المفردات والمعاني التي تستعمل فيها في مختلف تلك اللهجات ، ما لو نقح وصقل وضم الى ما في قواميسنا القديمة ، لاجتمعت منه ثروة عظيمة تزداد بها لغتنا الفصحى غنى على غناها، وثراء فوق ثرائها .

وأرى أن من مهمة مجامعنا العلمية واللغوية ، ولجاننا الثقافية في مختلف هيئاتنا العربية ، ان تعمل في هذا السبيل بجد ونشاط وتستغل النهضات العلمية والادبية القائمة الآن في أنحاء العالم العربي ، كما تستغل وجود الاعضاء الذين فيها من مختلف البلاد

العربية ، فتجمع ما فى مختلف اللهجات ، من الجمل والمفردات ، وتدرس ذلك على الطريقة الحديثة ، وتستخرج من الجميع ما ترى فيه فائدة ، وتقرره تقريرا وتضمه ضمنا الى معاجم الفصحى يستعمله كتابنا وأدباؤنا شرقا وغربا ، وذلك طبعا بعد أن تحذف من تلك المعاجم ما فيها من حشو او ما هو كالحشو الذى لم تبق له أية فائدة وانها لو فعلت ، فستجد من الفوائد ما لم يخطر لها ببال حتى الآن .

لقد سررنا كثيرا عندما سمعنا عن مجمع اللغة العربية الذى مركزه بالرباط ، استغفر الله ، بل بالقاهرة ، ذلك المجمع الذى على الرغم من اعجابنا به واشتياقنا للاستفادة من أبحاثه وانتاجه ، لا يصلنا لا ما جل ولا ما قل من مطبوعاته المتكدسة فى مخازنه ، لقد سررنا عندما سمعنا أن فيه لجنة خاصة كلفت بالبحث فى اللهجات العامية فى مختلف الاقطار العربية، وهى لجنة نؤمل ان يكون لها مسمى حقيقى ، وان تكون لجنة حية عاملة غير عاجزة كما هو الشان فى كثير من اللجان نشيطة تستفيد وتفيد .

كما نتمنى أن يكون صدور هذه المجلة « اللسان العربى » فتحا جديدا لميدان تتبارى فيه أقلام علمائنا وأدبائنا للسير بلغتنا نحو الكمال والازدهار .

اننا نرى ان فى مرونة اللسان العربى ما يجعله يتقبل بارتياح ، كل ما يضاف اليه من المفردات والجمل، مما لا يخالف الاصول المقررة ، والقواعد المحكمة المسطرة ، فلذلك ندعو ونحض على جعل لغتنا تساير بقية اللغات الحية الناهضة فى مختلف الميادين ، وان يدخل عليها ويضم اليها حتى من المفردات العامية ما يزيدها نموا واتساعا ، وذلك زيادة على المصطلحات العلمية الحديثة التى لا غنى عنها ، ولا محيد منها .

ونحن بهذا لا ندعو لانزال اللغة العربية الفصحى من منزلتها السامية وجعلها خليطا من مختلف اللهجات العامية ، بحيث يصير عملنا انما هو اماتة للفصحى واضافة لهجة عامية جديدة الى ما هو موجود من اللهجات كلا وانما نقول ونتمسك بوجوب المحافظة الكاملة على ما هو مقرر معقول من الاصول والقواعد السليمة فى علمى النحو والصرف ، وعلى ما هو محرر مقبول فى علوم البلاغة التى هى المعانى والبيان البديع، دون السماح بما يؤدى الى اللحن او مسخ الاسلوب العربى المتين والديباجة الرائعة والجمل والاساليب التى تمتاز بها لغتنا . ومع ذلك ندعو لصقل الالفاظ العربية العامية التى لا نجد من بين مفردات الفصحى وجملها ما يدل على معانيها ويقوم مقامها ، مثل نقل الالفاظ الاجنبية الجديدة التى تدل على المستحدثات العلمية والمصطلحات الاجتماعية ووضع الجميع فى قالب الفصحى وزنا وتنسيقا ، بحيث تصير تلك الالفاظ معربة مفصحة مثل ما نقل قديما الى العربية من اللغات الفارسية وغيرها ، وانا لنجد فى القرآن نفسه وفى كلام نبينا العربى وكلام فصحاء العرب قديما وحديثا من ذلك المنقول الشىء الكثير .

نحن ندعو لان يستغل ما فى لغتنا الفصحى من مرونة فيدخل عليها ويضاف اليها كل ما يناسب عصرنا وتقدمه العلمى والادبى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى ، من مفردات واصطلاحات وغير ذلك مما لا يضر بلغتنا بل يزيدها اتساعا ونماء ، وبهجة وجمالا .

والواقع الان ، ان اللهجات العربية العامية فى مختلف أقطار العروبة يعد جلها من صميم اللسان العربى وفى نظرى ان البحث فى تلك اللهجات انما هو من البحث فى أصول لغتنا العربية وما طرأ عليها من تقلبات وأطوار ، وما طعمت به او ما ينبغى أن تطعم به من مفردات ومعان وأفكار .

ونحن لا نرى ان الاقتباس والنقل من مختلف

اللهجات الى الفصحى ينقص من قدرها او يؤثر فى مكانتها الرفيعة التى تحتلها بين مختلف اللغات واللهجات ، بل انها بذلك تصير بين باقى اللهجات العربية كالجوهرة الثمينة فى عقد اللؤلؤ والمرجان ، أو الدرة اليتيمة فى قلائد العقيان .

وبهذه المناسبة أذكر انه قد مر على وقت كنت فيه معجبا بالبحث فى مختلف اللهجات ، والمقارنة بين أساليبها ومعانيها ، وجملها ومفرداتها ، وما تجتمع فيه او تختلف من الاصول ، وما يلحق كلماتها من لحن او تصحيف ، أو حذف او تحريف ، وكنت ارى أن ذلك الموضوع لذيذ لطيف ، والبحث فيه ممتع طريف .

وكنت ـ بالفعل منذ بضع عشرة سنة ـ وربما كان ذلك قبل تأسيس بعض المجامع العلمية ـ قد قمت بمحاولة فردية لتأليف كتاب عن اللغة العامية فى المدينة التى ولدت بها ، ونشأت وقضيت شبابى وكهولتى وبعض شيخوختى فيها ، وهى مدينة تطوان التى هى قطعة من صميم البلاد العربية فى قطر المغرب.

وهذا التأليف يحتوى على ثلاثة أقسام

الاول ، فى قواعد عامة تحاذى قواعد العربية الفصحى مما هو مقرر معروف فى علمى النحو والتصريف .

الثانى ، فقه هذه اللغة ، اى تحديد المسميات ومعانيها وتبيين الالفاظ الخاصة التى تدل عليها وتستعمل فى لهجة هذه المدينة من بين المترادفات المستعملة فى الفصحى .

الثالث : معجم مرتب على الحروف الهجائية نذكر فيه المواد والمفردات وما تستعمل فيه من المعانى فى هذه المدينة ونواحيها من القبائل الجبلية . وربما استشهدنا فى ذلك ببعض الامثال العامية المستعملة فى هذه المدينة كما كان علماء الفصحى فى القديم يستشهدون بالشعر العربى القديم ، وقد نمزج ذلك ببعض الفوائد التى تصور بعض نواحى الحياة الاجتماعية والفكرية فى هذه الانحاء ومن هذا القسم الثالث يعرف ما لا يزال حتى الآن مستعملا فى هذه النواحى من الالفاظ العربية ، وما صار منها الان فى حيز الاهمال.

والآن ، وقد صدرت مجلة «اللسان العربى» التى أتمنى لها التوفيق فى القيام بالواجب نحو لغتنا وثقافتنا ـ فانى أساهم فى مضمارها الفسيح بتقديم نموذج او نماذج من أبحاثى المتواضعة .

وهذه قطعة من القسم الثالث من الكتاب المذكور الذى ما يزال قيد التأليف ، وهى وان كانت لا تزال أيضا فى حاجة الى مراجعة وتنقيح ، الا انها ـ كما قلنا ـ نموذج نود بكل تواضع أن نسمع رأى علمائنا وكتابنا المشتغلين بمثل هذه الموضوعات ، فى نهجه وأسلوبه ما دام الكتاب لم يتم تأليفه ، فهو قابل للزيادة فيه والنقص منه . والله سبحانه هو المستعان .

(يتبع)